في الذكرى الأولى لانفجار بيروت: ضرورة فهم لبنان بماضيه وحاضره

غوكتوغ سونماز

إن هذه الجزرة التي قدمها البريطانيون بشكل غامض إلى الشريف حسين من خلال المراسلات، والوعد البريطاني الحقيقي كان في الأصل إلى لفرنسا، وأصبحت معاهدات سايكس بيكو ثم سان ريمو تجسيدا لهذا الوعد. ولو تركنا جانبا التوتر الناجم عن هذه المرحلة بين بريطانيا والشريف حسين، والشريف حسين وعائلته وفرنسا، وعدنا إلى خصوصية لبنان، سنرى أن فرنسا نفذت تدريجيا انتدابها بعد هذا التاريخ بشأن "سوريا الكبرى"، وأن لبنان كانت واحدة من هذه الهياكل المجزأة بشكل كبير التي ظهرت نتيجة هذه المرحلة.

عند النظر إلى الخلفية التاريخية للبنان، يمكن القول إنه واحد من أكثر البلدان ديناميكيةً في الشرق الأوسط وفي نفس الوقت أكثر بلداً

محفوفاً بالمخاطر الاجتماعية في المنطقة. إن لبنان الذي نعرفه اليوم منذ ظهوره على الأجندة الدولية والإقليمية بشكل جلي، له تاريخ مليء بالتصدعات العرقية والطائفية والحروب والصراعات الداخلية، فضلا عن تدخلات الدول الخارجية الفاعلة بشكل مباشر أو غير مباشر وبشكل علني أو سري. وهذا أوصل البلد إلى نقطة استثنائية في الشرق الأوسط. ربما لبنان يشبه العراق نوعاً ما فيما يتعلق بالأقليات والتنوع، لكن لديه معادلة أكثر خطورة. لذلك يمكننا القول إن الوصف الذي يراد إعطاؤه إلى العراق بأنه "نموذج مصغر للشرق الأوسط (بالطبع المخاطر موجودة في العراق)" يناسب لبنان أكثر من العراق. إن فهم هذا الإطار وخلفيته له أهمية كبيرة من أجل توقع التداعيات المحتملة للانفجار الذي وقع في بيروت في آب/

أغسطس 2020. إن أهم نقاط المراجع لفهم حاضر لبنان تعود إلى سنوات الحرب العالمية الأولى. فمن ناحية كانت بريطانيا تواصل مراسلاتها بين الشريف حسين ومكماهون في الفترة بين تشرين الثاني/ نوفمبر 1915 وآذار/ مارس 1916، ومن ناحية أخرى بدأت بريطانيا المحادثات مع فرنسا حول تقاسم الشرق الأوسط. وكانت سوريا إحدى النقاط المحورية في كل هذه المحادثات. هذه الجزرة التي مدّها البريطانيون بشكل غامض إلى الشريف حسين من خلال المراسلات، والوعد البريطاني الحقيقي كان في الأصل إلى لفرنسا، وأصبحت معاهدات سايكس بيكو ثم سان ريمو تجسيدا لهذا الوعد. ولو تركنا جانبا التوتر الناجم عن هذه المرحلة بين بريطانيا والشريف حسين، والشريف حسين وعائلته وفرنسا، وعدنا إلى خصوصية لبنان، سنرى أن فرنسا نفذت تدريجيا انتدابها بعد هذا التاريخ بشأن "سوريا الكبرى"، وأن لبنان كانت واحدة من هذه الهياكل المجزأة بشكل كبير التي ظهرت نتيجة هذه المرحلة.

ووفق هذه المعادلة التي تم تنفيذها في المنطقة بدأت فرنسا المنتدبة في سوريا في اتباع سياسة تركز على المسيحيين الموارنة الذين يعتبرون بقايا الحملات الصليبية. وحاولت فرنسا تشكيل نظام من شأنه جعل الموارنة أكثر فاعلية وتأثيرا لاسيما في لبنان. وبعد رسم حدود لبنان وإضافة مناطق هامة من الأراضي الزراعية السورية الخصبة إليه، تم إنشاء لبنان كواحد من هذه الهياكل الخمسة. ونتيجة لهذا التوسع، أصبح الموارنة أقلية، لكن المسلمين لم يتمكنوا من تشكيل كتلة موحدة. ومع انتخاب إميل إده الذي تلقى تعليمه في فرنسا وكان مؤيدا لاستمرار الانتداب الفرنسي في العام 1936, وتعيينه خير الدين الأحدب ترسّخت عادة رئيس الجمهورية الماروني ورئيس الوزراء السنّي. وخلال رئاسة بشارة خوري المعارض للانتداب الفرنسي عام 1943 ورئاسة وزراء السنّي رياض الصلح, توحدت هذه الجهات الفاعلة وبرزت الرغبة في الاستقلال مع تحديد الميثاق الوطني. وتم تقسيم الإثنيات حسب النسب السكانية في تعداد عام 1932 حسب التمثيل، وتحديد تركيبة الحكم الطائفي بحيث يكون رئيس الجمهورية مارونيا، ورئيس الوزراء عربيا سنيّا، ورئيس مجلس النواب عربيا شيعيا، ونائب رئيس مجلس النواب ونائب رئيس الوزراء من الروم الأرثوذكس، ورئيس هيئة الأركان مارونيا، وقائد الجيش اللبناني درزيّا. وسيكون هناك في البرلمان 5 نواب مسلمين مقابل كل 6 نواب مسيحيين.

فترة ما بعد الاستقلال

لم يتحقق استقلال لبنان إلا عام 1943 بعد مرحلة مؤلمة للغاية, ولكنه لم يتحقق بالمعنى الحقيقي إلّا في العام 1946. وبعد هذه الفترة، ومع هروب رؤوس الأموال إلى لبنان جراء حالة عدم الاستقرار لاسيما من مصر وسوريا والعراق، أصبحت لبنان تسمى "سويسرا الشرق الأوسط" خاصة مع التعديلات القانونية خلال فترتي حكم الرئيسين بشارة خوري وكميل شمعون. ووفق هذه المعطيات تغير المناخ الاجتماعي في السنوات التالية، وأضيفت تسمية "باريس الشرق الأوسط" إلى وصف لبنان، لغاية فترة الحرب الأهلية. وفي المقابل، فإن الإطارات العرقية والطائفية في البلد ونظام الزعامة المتعصبة الذي يسمح لعدد قليل من العائلات بمواصلة نفوذها لم يتحطّم، وهذا الأمر كان أحد الديناميكيات الاجتماعية المهمة التي ستؤجج الصراعات في السنوات المقبلة. ومن بين هؤلاء العصبيات، برزت حركة الكتائب المارونية بقيادة بيار الجميل التي كانت جهة فاعلة مسلحة غير حكومية تهدف إلى تحويل لبنان إلى دولة مارونية، ودفعت هذه الحركة الجهات الفاعلة الأخرى إلى اتباع مسارات مماثلة. ومن ناحية أخرى، بدأ الدروز في الظهور إلى الواجهة مع عائلة جنبلاط، وأسسوا الحزب التقدمي

الاشتراكي في أواخر الأربعينات تحت قيادة كمال جنبلاط. وفي الخمسينات من القرن الماضي انحصرت لبنان بين التيارات الناصرية وتوجهات المارون الغربية، فيما شهد البلد ظهور ديناميكيات الصراع في العقود التالية تدريجيا حيث كانت فترة فيها خطوط الصدع القديمة بارزة وجلية.

ردود الفعل الذي واجهها شمعون جراء ابتعاده عن حرب 1948-1949 وسعيه إلى الانتخاب للمرة الثانية أدّت إلى ثورة للمعارضة الإسلامية في عام 1958. وبناء على دعوة ملائمة لمبدأ أيزنهاور, تم نشر 15 ألف من قوات المارينز الأمريكية في لبنان. وأدت حادثة الانفجار في مرفأ بيروت في عام 1968 ومقتل 3 زعماء فلسطينيين في 1973 إلى اشتعال مرحلة جديدة ازدادت حدتها مع اغتيال حركة الكتائب 27 فلسطينيا في عام 1975. وبذلك بدأت حرب أهلية كانت منظمة النمور المؤيدة للكتائب وشمعون، ومنظمة التحرير الفلسطينية والهياكل اليسارية المحلية وسوريا وإسرائيل طرفا فيها. وتسبب التقارب الوثيق لسوريا وإسرائيل مع الكتائب في ردود فعل كبيرة في العالم العربي، فيما تسبب تورط إسرائيل في الحرب وعملية الاحتلال التي بدأت عام 1982 في ردود فعل داخل إسرائيل. ردود الفعل هذه لم تتسبب فقط في الانسحاب الإسرائيلي الذي استمر حتى عام 2000, لكنها كشفت أيضا عن الانقسام السياسي الداخلي الذي أدى إلى استقالة أرئيل شارون من وزارة الدفاع في ذلك الوقت, واستقالة مناحيم بيغن من رئاسة الوزراء, وتأسيس لجنة كاهان للتحقيق مع الجهات الإسرائيلية المسؤولة عن الاحتلال. وعلى الرغم من أن اتفاق الطائف لوقف إطلاق النار 1989 أدى إلى إيقاف المرحلة المسلحة على المدى القصير واتبع موقفا تجاه تحقيق التوازن بين الموارنة والمسلمين لصالح المسلمين في ميزان القوى في البلاد، إلا أنه بالطبع لم يكن من الممكن تحقيق تغيير في الهيكل الهش للبلاد.

الحالة الهشّة ازدادت بعد عام 2000

بعد انسحاب إسرائيل في عام 2000, أدى التأثير المتصاعد لحزب الله وأنشطته في المنطقة لإضافة مهمة إلى ديناميكيات الصراع في البلاد واحتمالية التدخل الإسرائيلي في المنطقة. أمّا بعد اغتيال رئيس الوزراء رفيق الحريري في عام 2005, ارتفعت الأصوات المنادية بإنهاء النفوذ والوجود السوري في البلاد, وفي هذه المرحلة التي سميّت بثورة الأرز, اتخذت العناصر التي تشكّل تركيبة لبنان مثل هذا الموقف المتوحد لأول مرة. ونتيجة لذلك, ورغم إعلان سوريا أنها ستسحب قواتها من لبنان, إلّا أن حزب الله وقف إلى جانب سوريا في هذه المرحلة, وأعلن أنه لن يلقي السلاح ونظّم مظاهرات مضادة. وبينما دخلت الحركة المارونية, التي عزّزت قوتها بعد عودة ميشال عون إلى لبنان, في صراع سياسي مع الهياكل الموالية للحريري في البلاد, رفعت هجمات حزب الله المتزايدة في أواخر عام 2005 من احتمالية نشوب صراع مع إسرائيل كما كان متوقعا, وبالفعل اشتعلت الصراعات في صيف عام 2006. وفي عام 2008, وقبل دخول البلاد في دوامة حرب أهلية جديدة, تم انتخاب رئيس الأركان السابق ميشال سليمان رئيسا للجمهورية تنفيذا لاتفاق الدوحة الذي جرى بوساطة قطرية. وفي العام 2009 أصبح سعد الحريري الذي تولى قيادة حزب المستقبل رئيسا للوزراء وشكّل حكومة الوحدة الوطنية التي ضمّت غالبية معارضة لسوريا من المارونيين والعرب السنة والحزب التقدمي الاشتراكي بزعامة وليد جنبلاط وكان10 من أعضاؤها من حركة الكتائب التابعة لعون والعرب الشيعة و5 من بينهم كانوا من المستقلين. وبدأت مرحلة ازداد فيها تأثير حزب الله بشكل كبير لاسيما بعد سقوط الحكومة جراء الاستقالات بسبب اتهام المحكمة الخاصة اللبنانية لحزب الله في العام 2011 بالتورط في عملية اغتيال

الحريري، إلّا أن هذه المعادلة ضعفت مع استقالة نجيب ميقاتي في العام 2013 واستلام فؤاد السنيورة المقرّب من عائلة الحريري رئاسة الجمهورية. وتولى سعد الحريري نجل رفيق الحريري رئاسة الحكومة حتى كانون الثاني/ يناير 2020، وبعد ذلك قام بتقديم استقالته وتسليم المهمة مرة أخرى إلى ميقاتي. وبعد توافقه مع حزب الله في هذه المرحلة، لعب دورا مهما في وصول عون الذي يعتبر المرشح الرئاسي لحزب الله إلى منصب رئيس الجمهورية. وعقب الحريري تولى حسن دياب رئاسة الوزراء الذي استقال بدوره بعد ذلك عقب الانفجار. هذه التغيّرات السريعة في أوقات قصيرة يمكن رؤيتها بشكل عام على أنها انعكاسات لحالة التنافس المتزايدة بين إيران والسعودية.

لو نظرنا بشكل عام إلى الأوضاع في البلاد يمكننا القول إن نظام الانتداب في لبنان قد تم تصميمه لتوفير أقصى فائدة للجهة المنتدبة، وإن هذا التصميم استند إلى ديناميكيات لن تجلب السلام والاستقرار إلى البلاد لسنوات عديدة. لقد تم اختبار هذا الوضع مرارا وتكرارا في الحياة السياسية اللبنانية. وفي دوامة التوترات السياسية والحرب الأهلية، برزت البلاد كملاذ آمن للمنطقة وفي نفس الوقت قنبلة جاهزة للانفجار في أي لحظة. كما أضيفت حروب بالوكالة والتنافس على النفوذ بين إيران وسوريا في المنطقة إلى هذا التصميم الهش، وبرزت أنشطة حزب الله والمناخ المعّقد مع أوضاع النفط والدولار في الخليج إلى الواجهة بالنسبة لإسرائيل، بسبب الدور الذي يلعبه ويمكن أن يلعبه حزب الله في المنطقة لاسيما مع بدء الحرب الأهلية في سوريا والصواريخ التي يمتلكها. وأصبحت القضية أكثر تعقيدا مع الاهتمام المباشر وغير المباشر للفاعلين في شرق البحر الأبيض المتوسط وبالتالي معادلة شرق المتوسط في الفترة الأخيرة من وجود فرنسا التي لا تريد أن تفقد نفوذها فيما يتعلق بالروابط التاريخية والولايات المتحدة التي تدخلت في لبنان في الخمسينات.

ووسط هذا المناخ الذي يجمع مشاكل عدم الاستقرار السياسي في البلاد والأزمة الاقتصادية، جاء انفجار بيروت في آب/ أغسطس ليُدخل هذه التركيبة المعقدة وشديدة الخطورة في مرحلة أكثر تعقيدا وخطورة. جدير بالذكر أن سفينة أم في روسوس القديمة مع مرور السنين التي كانت متوجهة في العام 2013 من مدينة باطوم إلى موزمبيق , ولكن بسبب مشاكل تقنية وأخطاء حسابات تجارية غيّرت مسارها وتوجهت إلى مرفأ بيروت وتم التخلي عنها من قبل مالكها, وفي العام 2014 صادرت السلطات اللبنانية في بيروت نحو 3 أطنان من نترات الأمونيوم كانت تحملها السفينة. وبقيت السفينة التي كان ينتظر بيعها وحمولة نترات الأمونيوم التي تم تفريغها في الميناء منذ العام 2015, وتسببت هذه المادة المتفجرة في الانفجار الكبير الذي وقع في المرفأ. وتشير المعلومات إلى أن الانفجار كان يعادل تأثير ألف و500 طن من تي أن تي, علما بأن انفجار هيروشيما كان يعادل تأثير 12-15 ألف طن من مادة تي أن تي.

الأوضاع بعد الانفجار

بعد الانفجار بدأ سؤال عمّا ينتظر لبنان والمنطقة يُطرح في البلاد. فبالإضافة إلى العناصر المعقّدة للمعادلة في البلاد مثل ديناميكيات الصراع الطائفي الجاهزة للاشتعال والحروب الأهلية والتدخل العسكري الإسرائيلي والتأثير الأمريكي والفرنسي، تواجه لبنان أزمة اقتصادية كبيرة، وتسبب هذه الأزمة احتقانا وغضبا شعبيا متزايدا مع الوقت. وبينما تضاعفت الأزمة الاقتصادية في لبنان

التي تعيش في قبضة التدهور الاقتصادي ثلاث مرات بسبب حالة عدم الاستقرار السياسي وتأثير جائحة كورونا، فإن لبنان الذي يعتبر أحد دول الشرق الأوسط المحتمل أن تنتقل إليه الصراعات الداخلية بسبب التوترات الطائفية والدينية والمذهبية، أصبح في دوامة أزمة جاهزة للانفجار أكثر من ذي قبل. يشار إلى أن رئيس الجمهورية كلّف سعد الحريري بتشكيل حكومة جديدة بعد الانفجار، إلّا أنه يمكن القول إن مشاكل الحريري مع سوريا الذي يتهمها بالتورط في اغتيال أبيه والجنسية السعودية الذي يحملها واحتمالية التأثيرات المباشرة للتغيرات التي طرأت على العائلة الحاكمة بالسعودية بشكل مباشر على حياته السياسية وأزمة تشكيل الحكومة مع عون وتعمّق حالة عدم الاستقرار وعلاقته المتقلبة مع حزب الله، كلها أمور من شأنها أن تسبب سير لبنان في السياسة الداخلية والخارجية في المستقبل على أرضية هشّة. كما أن انسحاب سعد الحريري من هذه المهمة اعتبارا من 15 تموز/ يوليو 2021، بسبب خلافاته مع عون، يظهر أيضا أن هذا الضعف سيتعمق أكثر في الفترة المقبلة.

انفجار بيروت في لبنان الذي لا يزال يعيش على حافة الانهيار الاجتماعي والاقتصادي ومن المرجح جدا أن يصدّره إلى المنطقة الهشة أصلا، خلق في العام الماضي معادلة جديدة تضم إيران التي تربطها علاقات وثيقة مع حزب الله، وفرنسا التي تواصل اليوم مساعيها لاستعادة ماضيها في الانتداب التاريخي بالمنطقة، وإسرائيل التي ترى لبنان تهديدا لها بسبب وجود أعضاء برلمان مرتبطين بحزب الله والميليشيات الشيعية، وهذه الدول تحاول الدخول في تلك المعادلة بشكل أكبر. وعلى الرغم من ردود الفعل ضد جميع الفئات السياسية بما في ذلك حزب الله خلال التظاهرات التي تلت الانفجار، إلّا أن العديد من العوامل لاسيما الانهيار الاجتماعي والاقتصادي الحالي فتح مساحة أكبر لكل هذه الجهات. وإضافة إلى ذلك، فإن أحد المخاطر المهمة هو إعادة تفعيل ديناميكيات الحرب الأهلية الخامدة في البلاد، تأثرا بهذا الانخراط الدولي. وفي مثل هذا السيناريو، ستكون فعاليات حزب الله والموازنة المدعومين علنا أو سرا من فرنسا على الساحة اللبنانية بالغة الأهمية مع الحرب الأهلية. وفي النتيجة، هذه النقطة تزيد من أهمية المشاركة الحكيمة للجهات الفاعلة مثل تركيا التي تركز على وحدة الأراضي، ويمكنها النظر إلى ما وراء سياسات الهوية، وتعتبر حماية الاستقرار الإقليمي أمرا هاما جدا من أجل أمنها القومي والأمن في المنطقة والأمن في العالم. ■

غوكتوغ سونماز: أكاديمي من تركيا، أستاذ مساعد دكتور في قسم العلاقات الدولية بجامعة نجم الدين أربكان، مدير قسم الدراسات الأمنية في مركز أورسام.